

د. محمود الضبع

بكت له عين السحاب

الشتاء فصل الحب والحنين وفصل البرد والغيوم والمطر، ارتبطت لياليه في المخيلة العربية بالتعبير عن شكوى الاحتياج والوحدة، والشوق إلى الصحب والأحبة، وتعلقت نهاراته بمعاني الدفء والإشراق والبهجة، وارتبط في الوعي العربي بمعاني الكرم والجود ورعاية المحتاج ونجدة المستغيث والملهوف، وهو ما عبر عنه مبكرًا "حاتم الطائي" أكرم العرب، في تجربة واقعية، وهو يطلب من خادمه -في ليل الشتاء البارد- أن يشعل النار في "موقدته" التي تعد مزارًا سياحيًّا في جبال أجا وسلمى بمدينة حائل السعودية حتى الآن، وكانت دليلًا يهتدي إليه المسافرون والتائهون ليلًا، يقول له: أشعل النار فإن الليلة شديدة البرودة، ورياحها قاسية:

أَوقِـد فَـإِنَّ الـلَـيـلَ لَيـلٌ قَــرُّ
وَالـريـحَ يـا مـوقِـدُ ريـحٌ صِـرُّ
عَـسى يَـرى نـارَكَ مَـن يَمـُرُّ
إِن جئتني بضيف فَأَنتَ حُرُّ

أما على المستوى الجمالي، وارتباطًا بالبيئة العربية التي عرفت أقاليمها الزرع والنماء والخصوبة، مثل بلاد الشام والعراق ومصر، وبلاد المغرب العربي والأندلس، فقد استقر في الوجدان الجمعي لهذه الأقاليم أن الشتاء سيد الفصول، وهو ما يعبر عنه "ابن خاتمة الأندلسي":

جـاءَ الشِّـتاءُ بِغَيْـمِـهِ مُتَحَجِّـبـا
أهـلًا بِسُـلْطـانِ الفُصُـولِ ومَرْحَـبـا

وهي صورة تجمع بين الوصف المادي الذي يرى الكون ملكًا وتاجه السحب والغيوم، والوصف النفسي المعنوي الذي يجعل للشتاء سطوة تهابها كل الكائنات، فتسقط أوراق الأشجار، ويخفي الناس أنفسهم في ملابسهم السميكة،



وتغلق البيوتِ نوافذها وأبوابها.. ثم يواصل التدليل على فرضيته، قائلًا:

أعْظِمْ بِهِ مَلِكًا عَلَيْهِ مَهابَةٌ
عَمَّتْ كتائِبُهُ الأباطِحَ والرُّبا
فَصلٌ تَوزَّعَ كُلُّ فَصْلٍ فَضْلَهُ
فَنَما وآنقَ حُسْنُهُ أو أخْصَبا
فإذا الرَّبيعُ تَبَرَّجتْ أنوارُهُ
وتأرَّجَتْ أسحارُهُ وتَطَيَّبا
وجَلا حُلى الزَّهرِ النَّضِيرِ مُدَبَّجًا
ومُدَمْلَجًا ومُفَضَّضًا ومُذَهَّبا

ولعل هذا ما دفع العقيدة العربية الإسلامية لابتكار دعاء وابتهال إلى الله لا يتكرر في أي ثقافة أو حضارة غير العرب، وذلك عند الدعاء للمتوفى قبل دفنه: "اللَّهمَّ اغفرْ لَهُ وارحمهُ، وعافه واعفُ عنهُ، وأكرِم نُزُلَهُ، ووسِّع مُدَخلَهُ، واغسلْهُ بالماءِ والثَّلَجِ والبَردِ"، وهو المأخوذ من حديث نبوي شريف أخرجه النسائي ومسلم، عن رواية عوف بن مالك.

فالثلج والبرد لا يمكن فهم دلالاتها الثقافية (السيميولوجية) إلا في سياقها الحضاري المرتبط بالبيئة العربية الحارة وشمس صحرائها القائظة، وتصورات أهلها عن الحياة

الآخرة، وقسوة الحرارة ولهيب النار، لذا يكون الثلج والبرد آنذاك هو الجائزة الكبرى للخروج من هذا الجحيم، وذلك على العكس تمامًا من مفاهيم البلدان الثلجية مثلًا التي قد تكون دلالات الثلج فيها مغايرة.

وفي الإجمال، فعند البحث في الشعر العربي عن حضور الشتاء ودلالاته وكيفية التعبير عنه، فإنه يمكن التمييز بين أكثر من مدخل، لكل منه تجلياته الشعرية، والتي يمكن تصنيفها إلى الشتاء الجميل، وشتاء الحب، وشتاء الشكوى والبؤس، وشتاء الحكمة والعِظة.

الشتاء الجميل:

ويرتبط برسم مشاهد الجمال في الطبيعة والحياة، وأثر ذلك على الناس والكائنات، وتأثيره على العواطف الإنسانية والمشاعر التي ترويها الأمطار، ويشعلها الدفء بعد البرودة، وهو ما يتكرر كثيرًا في مدونة الشعر العربي، ومنه هذه الرؤية التي تفلسف وجود الشتاء، وتبحث فيه عن الجمال، كما التقطها ابن المعتز (الشاعر العباسي الأمير الذي اقترن اسمه بالبديع، بعد أن صنف فنونه في أبواب وفصول جعلته علمًا من بعده)، يقول:

هَجَمَ الشتاءُ وَنَحنُ بِالبَيداءِ
وَالقَطرُ، بَلَّ الأَرضَ بِالأَنواءِ
فَاشرَب عَلى زَهرِ الرِياضِ يَشوبُهُ
زَهرُ الخُدودِ وَزَهرَةُ الصَهباءِ
مِن قَهوَةٍ تُنسي الهُمومَ وَتَبعَثُ الـ
شَوقَ الَّذي قَد ضَلَّ في الأَحشاءِ
تُخفي الزُجاجَةُ لَونَها وَكَأَنَّها
في الكَفِّ قائِمَةٌ بِغَيرِ إِناءِ

فعندما باغتهم الشتاء بأمطاره الغزيرة وهم في الصحراء، اختلط الجمال بالجميل، وشربوا نخب زهور الحدائق، وزهور الخدود، وزهور الشراب، وانتشر الجمال وانعكس على كل التفاصيل، واشتعلت الأشواق ومشاعر الحب.

وهو المعنى ذاته الذي يعالجه "الصنوبري" من العصر العباسي، فيرسم مشهدًا للسحب الممطرة وهي تروي الأرض وكأنها ساقٍ يروي محبه، فتسكر الأرض، وتصفو الأجواء من الغبار والتراب، وتعم الفرحة على الحياة:

بكِّرْ فإن الشتاءَ قد بكّر
ما قَصَّرَتْ سُحْبُهُ ولا قَصَّرْ
حَثَّتْ سُقاةُ الغَمامِ أكؤُسَها
فالأرضُ سَكرَى وكيفَ لا تَسكر
طَوَتْ رُباها غبارَها فَصَفَا الـ
جوُّ وقد كان وجهُهُ أغْبَر
غِيثَتْ فَسُرَّتْ وسُرَّ ساكنُها
واستبشرتْ بالغيوثِ واستبشَر

وأما في الشعر الجاهلي، فهناك قصائد مبكرة حول الشتاء والبرق والرعد والسحب والأمطار، ومنه القصيدة التي مطلعها (هبت تلوم وليست ساعة اللاحي)، والمنسوبة في بعض المصادر لـ "عبيد بن الأبرص"، وبعضها الآخر، ومنهم طه حسين في الشعر الجاهلي ينسبها لـ "أوس بن حجر"، وهي قصيدة تربط بين الشتاء والرياح والسحب والأمطار، وأثر كل هذا على خصوبة الأرض ونمائها، وفيها وصف للبرق والرعد والأمطار التي بات الشاعر ليلته يرقبها ويصف حركاتها في قريته (يا من لبرق أبيت الليل أرقبه)، ويصف تأثير ذلك في إحدى الصباحات بعد أن هبت ريح الجنوب، فهطلت الأمطار السخية أنهارا، ونمت على الأرض الأعشاب والزروع والنباتات بكل الأشكال والألوان:

هَبَّت جَنوبٌ بِأولاهُ وَمالَ بِهِ
أَعجازُ مُزنٍ يَسُحُّ الماءَ دَلاحِ
فَأَصبَحَ الرَوضُ
وَالقيعانُ مُمرِعَةً
مِن بَينِ مُرتَفِقٍ فيهِ وَمُنطاحِ

وهذا المعنى الأخير المرتبط بتأثير الشتاء الجميل على الأرض والزرع والنماء، هو ما يلتقطه "أبو تمام" في العصر العباسي، ليرسم من خلاله لوحات فنية وكأنها مشاهد سينمائية بمفهومنا المعاصر، ومنه قصيدته التي مطلعها:

رَقَّت حَواشي الدَهرُ فَهيَ تَمَرمَرُ
وَغَدا الثَرى في حَليِهِ يَتَكَسَّرُ
نَزَلَت مُقَدِّمَةُ المَصيفِ حَميدَةً
وَيَدُ الشِتاءِ جَديدَةٌ لا تُنكَرُ
لَولا الَّذي غَرَسَ الشِتاءُ بِكَفِّهِ
لاقى المَصيفُ هَشائِمًا لا تُثمِرُ

فها هو الشتاء قد بدأ في الرحيل، فلانت الأرض، ورقت أطرافها وتشكيلاتها، وحلت وطابت الأيام، وبدأت تتهشم تكوينات التربة التي كانت قد تشبعت بسيول الأمطار، وظهرت في الطبيعة مقدمات فصل الربيع وتفتح الأزهار، ولولا فضل الشتاء في كل ما فعله بالأرض، لجاء الربيع فصلًا جافًا بلا زروع وأغصان وأشجار وثمار.

ويرسم "المكيالي" من العصر الأندلسي لوحة سينمائية حركية تصور الفصول الأربعة وهي تتعارك ليحتل بعضها مكان بعض، ويثبت كل منها جدارته وأفضاله على الحياة، فهذا هو الربيع قد استل سيوفه الصوارم هاجمًا على الشتاء ليقضي عليه، فلما أن جرح الشتاء بكت عليه أعين السحاب بدموعها، وانسالت عليها المياه من كل مكان مرتفع، وبزغت أزاهير متنوعة تجمع ألوانها بين الحمرة والسواد، وكأنها تتألم لأجل الشتاء الجريح:

سَلَّ الربيعُ على الشتاءِ صَوارِمًا
تَركتهُ مَجروحًا بِلا إغمادِ
وَبَكَت لَهُ عَينُ السَحابِ بِأَدمُعٍ
ضَحِكَت لِساجِمِها رُبى الأنجادِ
وَبَدَت شَقائِقُها خِلالَ رِياضِها

تُزهى بِثَوبي حُمرَةٍ وَسَوادِ
فَكَأَنَّها بِنتُ الشِتاءِ تَوَجَّعَت
لِمُصابِهِ كَشَقيقَةِ الأَولادِ

شتاء الحب:

في الشتاء تتزايد حاجة البشر للحب، وتنمو مشاعر الوحدة والشوق والحنين، ويبحث كل إلف عن إلفه، بل يبحث من لا حبيب له عن خل يؤانس وحدته، وقرين يداعب مخيلته، ولو على البعد كان.

ولعل الأسباب في ذلك جميعه تعود لأن ليل الشتاء بارد وطويل، يحتاج فيه الإنسان إلى دفء الجسد ودفء الروح (الدفء العاطفي)، وتخرج فيه المشاعر العميقة المخفية لتعلن عن حضورها المستمر في نفس الإنسان.

وهذه المعاني إجمالًا، هي ما تناوله الشعر العربي في قصائد ومقطوعات وأبيات، ومنه ما التقطه "أبو عثمان الخالدي" من العصر العباسي، معاتبًا خله، مشبهًا نفسه بالسحب، أمطارها كدمعه، وبرقها كنار حبه في القلب، وريحها كأنفاسه المتلهفة للقاء المحبوب:

أَما تَرى الغَيْمَ يا مَنْ قَلْبُه قاسي
كَأَنَّ أَنا مِقْياسًا بِمِقْياس
قَطْرٌ كَدَمْعي وبَرْقٌ مِثْلَ نارِ جَوىً
في القَلْبِ منّي وريحٌ مِثْل أَنْفاسي

وتلتهب مشاعر الحنين والاشتياق عند "حسن حسني الطويراني" فيصور استجابة محبوبه لدعوة الزيارة، والمشاعر الملتهبة التي جرت بينهما، وحرارة دموع الشوق عند اللقاء:

قُلتُ وافى الشِّتاءُ يا خلّ زرني
فَعَسى يَشتَفي فُؤادي الصَديعْ
جاءَنا دالفًا فَلما أَصابتهُ
دُموعي وَأَحرقته ضُلوع
خرَّ مُلقًى فَما يَروم حِراكًا
لغواني النجوم مثلَ الصَريع

وفي العصر الحديث، يستمر شتاء الحب حاضرًا في القصائد، وهو ما يتكرر عند كثيرين، فنجده عند "فواز اللعبون، وسليمان الصولة، ومصطفى طاهر الموسوي" وغيرهم كثير، فها هو الشوق يصل منتهاه عند "اللعبون"؛ فيعبر في معانٍ لطيفة عن اشتعال أشواقه التي تكفيه مواجهة برد الشتاء:

جاءَ الشتاءُ وروحي في حرائقِها
وما أزالُ أُداري سرَّ إحراقي
الناسُ تُوقدُ في بَرْدِ الدجى حطبًا
وإن قسا البَرْدُ بي أوقدتُ أشواقي!

وفي الشعر التفعيلي سيتكرر شتاء الحب عند كل الشعراء تقريبًا، فالمطر وليالي الشتاء والمدن التي تتساقط فيها الثلوج والبلدان التي تكثر فيها الأمطار، كل ذلك سيمثل موضوعًا ثريًا لشعراء الحداثة وما بعدها، وبخاصة مع التطور الحضاري الذي جعل من الشتاء حياة أخرى، وصنع له طقوسًا يلتقي الناس لأجلها، وعبر ذلك جميعه ظل الحب في الشتاء مساحة ثرية للتعبير عن دواخل النفس الإنسانية، وهو ما يعبر عنه "نزار قباني" قائلًا:

إذا أتى الشتاء.. وحركت رياحه ستائري
أحس يا صديقتي بحاجة إلى البكاء
على ذراعيك.. على دفاتري..
إذا أتى الشتاء وانقطعت عندلة العنادل،
وأصبحت.. كل العصافير بلا منازل
يبتدئ النزيف في قلبي.. وفي أناملي.

شتاء الشكوى والبؤس:

وعلى النقيض من كل ما سبق، سنجد صورة أخرى للشتاء تناولتها كثير من القصائد العربية، وهي تصوير قسوته وشدة بأسه على النفس وعلى الفقراء والمحتاجين، وعلى من لا يملك الدفء في مواجهة البرد والأمطار والرياح والأعاصير، وهو ما يرصده "أبو العلاء المعري" في العصر العباسي، برؤيته الفلسفية المعهودة، يقول:

لَقَد جاءَنا هَذا الشِتاءُ وَتَحتَهُ
فَقيرٌ مُعَرّى أَو أَميرٌ مُدَوَّجُ
وَقَد يُرزَقُ المَجدودُ أَقواتَ أُمَّةٍ
وَيُحرَمُ قوتًا واحِدٌ وَهوَ أَحوَجُ
وَلَو كانَتِ الدُنيا عَروسًا وَجَدتُها
بِما قَتَلَت أَزواجَها لا تُزَوَّجُ
فَعُجْ يدَكَ اليُمنى لتشربَ طاهرًا
فقد عِيفَ للشُّربِ الإناءُ المعوَّج

فالشتاء يأتي بأعبائه وأحواله التي لا يطيقها كثير من الناس، وليس الفقير فاقد الملابس والأغطية كمثل الأمير مالك كل أسباب الدفء، وهكذا حال الدنيا، أناس يملكون كل شيء وآخرون لا يملكون طعام يومهم.

وهو المعنى ذاته الذي يعالجه "الأحنف العكبري" من العصر العباسي، ويبدو أنه كان يكره الشتاء جدًا، لأنه يرسم صورة للفقير وهو يعاني متاعب الشتاء من البرد القارس شديد البرودة، ووحل الأرض بسبب ترسب الأمطار على الطين، والرياح العاتية، والنهار القصير، والليل الطويل القاتل الذي هو الموت بالفعل وصباحه هو بعث للموتى من أجل الحساب الأخروي.

برد الشتاء معذب
يشقى به الرجل الفقير
وحل وريح قاتل
ونهاره يوم قصير
ليل الشتاء هو الممات
وفي صبيحته النشور

وسوف تتكرر هذه المشاعر السلبية تجاه الشتاء لدى شريحة

من الشعراء، عبروا عن فقرهم، واشتكوا من قدوم الشتاء إليهم، وأعبائه ومتطلباته التي لا يقدرون عليها، فهذا "جحظة البرمكي" من العصر العباسي، يشكو فقر الوقود لديه، وقلة الملابس الملائمة، وما ذلك إلا لولعه بالكرم والإنفاق، فالكرم ليس قصرًا على القادرين، ولكن المساكين لهم في ذلك نصيب، يقول:

جاءَ الشِتاءُ وَما عِندي لَهُ وَرَقٌ
مِمّا وُهِبتُ وَلا عِندي لَهُ خِلَعُ
كانَت فَبَدَّدَها جودٌ وَلِعتُ بِهِ
وَلِلمَساكينِ أَيضًا بِالنَدى وَلَعُ

وقريب من ذات المعنى، ما يعبر به "ابن نباتة السعدي" من العصر العباسي أيضًا، حيث أتى الشتاء وليس لديه أية أدوات أو ملابس أو أغطية، ليس لديه سوى رعشة البرد في جسده، وطقطقة الأسنان من شدة هذا البرد، ولو مات لجاءته الأكفان من الجميع، فلماذا لا يهبه أحدهم كفنًا يستدفئ به وهو حي؟

جـاء الـشـتـاءُ ومـا عـنـدي لـه عـددٌ
إلا ارتــعــادٌ وتـقـريـص بـأسـنـانـي
ولـو قـضـيتُ لما قـصـرتَ في كَفَنِي
هبني قضيتُ فهبني بعض أكفاني

ويتكرر ذات المعنى عند "ابن عنين" من العصر الأيوبي، فيرسم صورتين أولاهما تشكو قلة الملابس والأغطية في مواجهة البرد الشديد الذي لا يقدر عليه أحد:

جاءَ الشِتاءُ وَلَيسَ عِندي فَروَةٌ
وَالـقُرُّ خَـصمٌ لا يُـرَدُّ وَيُـدفَعُ
وَإِذا الشِتاءُ أَتى وَما لِيَ فَروَةٌ
أَلـفَيتَ كُـلَّ تَـميمَةٍ لا تَـنفَعُ

والصورة الثانية تعد من طريف صور التعبير عن بخل المقتدرين في الشتاء، وامتناعهم عن مساعدة المحتاجين:

جاءَ الشِتاءُ وَلَيسَ عِندي جُبَّةٌ
فَطَفِقتُ أَطلُبُ دارَ الدينِ
فَتَصَحَّفَت لَمّا فَراها حَبَّةً
فَبَدا يُواصِلُ زَفرَةً بِأَنينِ
وَشَكا نِياطَ فُؤادِهِ وَحَرارَةً
في قَلبِهِ تُربي عَلى سِجّينِ

شتاء الحكمة:

وفي تشكيل مغاير لكل ما سبق، سنجد تناولًا مختلفًا للشتاء في الشعر العربي، يربط بين الشتاء والحكمة والبصيرة والفطنة والإدراك واستخلاص العمق والخبرة، وهو ما يبلغ منتهاه عند شاعر الزهد "أبو العتاهية"، عندما يقول:

كَم يَكونُ الشِتاءُ ثُمَّ المَصيفُ
وَرَبيعٌ يَمضي وَيَأتي الخَريفُ
وَاِنتِقالٌ مِنَ الحَرورِ إِلى الظِل
وَسَهمُ الرَدى عَلَيكَ مُنيفُ
يا عَليلَ البَقاءِ في هَذِهِ الدُنيا
إِلى كَم يَغُرُّكَ التَسويفُ
عَجَبًا لِاِمرِئٍ يَذِلُّ لِمَخلوقٍ
وَيَكفيهِ كُلَّ يَومٍ رَغيفُ

فتعاقب الفصول والانتقال من الحرارة الشديدة إلى الظل، ومن الصيف للشتاء، كل ذلك يؤكد أن الموت قادم لا محالة، وأن الناس في لهو عما ينبغي التفكر فيه، والأعجب أن يتذلل إنسان لإنسان على الرغم من أن الله قد كفاه رزقه.

ومن طريف حالات التأمل والتفكر في الشتاء وأحواله، وعلاقته بالفصول الأخرى، ما رسمه "ابن قلاقس"، من العصر الأندلسي، للتعبير عن مواءمته بين الفصول الأربعة، وقابلية الإنسان لأن يتكيف ويتعايش ويحقق إرادة القدر، يقول:

يـا مَـنْ يـرى فضلَ الشتاءِ
عـلـى المـصيـفِ كما تحكّمْ
مـا ذاكَ عـنـــدي جـنّــةٌ
فـيـكـونُ ذا عـنـدي جهنّمْ
اسْـمَـعْ هـمـا مـلـكـان كـلٌّ
في ولايــتِــــه مـعـظّـمْ
ولـكــلّ مَـلـــكٍ منهُما
مـتـسـلّـم يـأتـي مُـقـدّمْ
يـأتـي الـربـيعُ عن المصيفِ
وفـضـلُـهُ مـا أنـتَ تـعـلَـمْ
وتـرى الخريفَ عن الشتاءِ
ولـيـسَ يـسـلـمُ مـن تـسلّمْ
والـعـبــدُ فـــي أفـعـالـهِ
عـن خُـلْـقِ سـيّـدِه يُـترجِمْ

ولعله في نهاية المطاف، يمكن التوقف مع هذا العمق الذي يرصده الشاعر الفلسطيني "محمود درويش"، من تأمله في دورة الحياة، وتكرار تعاقب الشتاء، وارتباطه دومًا بمخبوء النفس، ومكنون الوجدان، من شعور بالوحدة، واحتياج للمحبوب الغائب، والعيش على الذكريات، والشعور بالحزن الدفين، يقول:

سَيَأتي الشّتاءُ الّذي كَانَ.. لِلْمَرَّةِ العاشِرَةْ.
فَمَاذَا سَأَفْعَلُ حِينَ يَجِيءُ الشّتَاءُ الذي كَانَ؟
مَاذَا سَأَفْعَل كَيْ لا أَمُوتَ كَمَا مُتُّ،
مَا بَيْنَ قَلْبَيْن، أَعْلَى مِنَ الغَيْمِ أَعْلَى.. وَأَعْلَى؟
أُعِدُّ لَكِ الذِّكْرَيَاتِ، وَأَفْتَحُ نَافِذَةً لِلْحمامِ المُصابِ بِنِسْيَانِ دِفْلَى، وَأَلْمُسُ فَرْوَ غيَابِك... هَلْ كان في وسْعِنَا أَنْ نُحِبَّ أَقَلَّ لِنَفْرَحَ أَكْثَرَ؟

وهكذا سوف يبقى الشعر، حاملًا بين أعماقه تفاصيل المشاعر العميقة للإنسان في علاقته بالكون والحياة والليل والنهار، وسيبقى الشتاء موضوعًا للحب والعشق والحنين، والدفء والبرد والأمل والألم.



■ للفنان جيف رولاند ١٩٦٤- ٢٠١٨